علماء العرب 32

يوحنا بن ماسويه

عالم الأحجار الكريمة

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

يوحنا بن ماسويه

عالم الأحجار الكريمة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: يوحنا بن ماسيه
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 89 61 / 213 21 23 64 85
الهاتف: 213 21 23 68 32 / 213 21 23 89 16
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-270-X
Dépôt légal : 1690-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

الطبيب الأمّي

في قَصرِ الخِلافة ببغدادَ، استقبلَ الخَليفةُ العَبّاسِيّ «هارونَ الرَّشيد» طَبيبَه الأثير (المُفضَّل) «جبرائيل بن بختيشوع»، وكَانَ بصحبتِه صَديقُه «ماسَوَيْه» الطَبيبُ الأمِّيّ (الذي لا يقرأ وَلا يَكتب). وَمع ماسَوَيْه كان ابنهُ «يوحنّا». وكان يوحنّا شابًّا في العشرينَ، عريضَ الجبينِ، مُرتفعَ قَحْفِ الرَّأس (ذروته) مُستطيلَ الوجه، أزرقَ العَيْنَيْنِ.

وَرَحَّبَ الرشيدُ بطبيبِه «جبرائيل». وَقال جبرائيلُ للراشيدِ مُشيرًا إلى ماسويْه:

هَذا هُو ماسويْه يا أميرَ المؤمنين:

فقال لهُ الرشيدُ ضاحِكًا:

– الطبيبُ الأمِّيّ الذي جئتَنا بِه مِن جُنْدِيسَابُور.

فقال له جبرائيل:

– هو بِعينِه يا مولاي.

فالتفتَ الرشيدُ إلى ماسَوَيْه، وقالَ لهُ:

– أحسَبُ أنَّكَ قَد بلغتَ مِنَ العمرِ الآنَ سبعينَ عامًا .

فابتسمَ ماسَوَيْه وقالَ:

– صدقتَ يامَوْلاي. لم يَخْرِم (لم ينقِص أو يَزيد) تقديرُك لعمري عامًا واحدًا. وهذا هو إبنِي «يوحنّا»، وهو يعملُ الآنَ شمَّاسًا في كَنيسةِ السُّريانِ النسْطوريّين.

فضحِكَ الرشيدُ، وقالَ:

– لم يأتِ دورُنا مَع ابنِكَ بعدُ يا ماسويْه. فأنا أريدُ أن أعبِّر لك عن سروري بِوجودِك مَعنَا في بغدادَ منذُ سنين، وقد بلغتني

أخبارُك كطبيبٍ ناجِحٍ في بيمارستانَ (مستشفى) بغداد، وأخبارُك كمعاونٍ قَديرٍ لرئيسِ البيمارستان.

تنهَّدَ الرشيدُ، والتفتَ قائلاً لجبرائيل:

– لولاَ أنَّ صاحِبَك ماسويْه لا يقرأُ لغةً من اللغاتِ، ولا يكتبُ بلغةٍ مِن اللغاتِ، لأسْنَدْنا إليه أمرَ البيمارستان.

فقال ماسويْه للرشيدِ:

– أنا راضٍ بِما أنا فيه من نِعَمِكَ يا مولاي، والحمدُ للّه.
فقالَ لَه الرشيدُ، راضيًا عَمَّا قاله:

– والآنَ. ماذَا عَن ابنِك الشمّاس؟ ماذا تريدُ له عندنَا مِن الأعمالِ؟

مراجع أَمين

قال مسويه للرشيد:

– عوّضت سوءَ حَظِّي، وتقصيري، يا مُولاي، فِي معرفةِ القراءةِ والكِتابةِ، وبحسنِ تَرْبيتِي، فيما أظُنّ، لابنِي هذَا، فصارَ يُتقنُ قراءةً، وكتابةً، وتَرجمةً، وهو في سنِّ العشرينَ الآنَ، اللغاتِ العربيةَ، والسريانيَّةَ، واليُونانيّةَ، وكأنّه واحدٌ مِن بنِيها جميعًا.

ونطَق يُوحنّا حين التفتَ إليهِ الرشيدُ، معجبًا بِما سَمِعَه عَنْه، قَال:

وأنَا يا أميرَ المُؤمنينَ، أدرُسُ الطبَّ على أيدِي الأطباءِ، في بيمارستانَ بغدادَ.

فقالَ لَه الرشيدُ:

– طُموحٌ جَميلٌ يا يُوحنّا. لكنْ. مَن يشهدُ لك بِصحّةِ الترجمةِ، ودِقّتِها، غيرُ أبيك؟

عندئذٍ قالَ جبرائيلُ للرشيدِ:

– أنَا أشهدُ لهُ بِذلك ياموْلاَيَ، خاصةً في ترجمةِ كُتُبِ الطبّ، وَفي الطبِّ مصطلحاتٌ خاصّةٌ، لا يعرفُها كَثيرٌ من المترجمِين.

فَقال الرشيدُ لِجبرائيلُ:

– هذا هُو ما نحنُ بحاجةٍ إليْه، فقدْ جئْنَا، مَع مَن أسَرْنَاهُ من الرّوم، بكتبِ طبٍّ كَثيرة، مكتوبةٍ باليُونانيّةِ، مِن مدائنَ أنقرة، وعَمّوريّة، والقسطنطينيّةَ، وَسِواها، وهيَ من الكثرة، والضّخامة، بحيثُ تَحتاجُ إلى الإنتقاءِ لما يُترجمُ منْها، وإلى فريقٍ مِن المُترجمينَ، يقودُهم مُراجِعٌ أَمين.

عندئذٍ سارَعَ جبرائيلُ يقولُ للرّشيدِ، مُشيرًا إلى يُوحَنّا:

وهذا هو المراجعِ الأمينُ يا أميرَ المؤمنينَ. وأرَى أن تُخصِّصَ بَيْتِ الحِكمةِ قاعةً لترجمةِ الكتبِ الطبِّيّة، يُشرِفُ عَليها يُوحنّا هذَا.

فقالَ الرّشيدُ ليوحَنّا:

– إذهبْ مِن الغدِ يا يُوحنّا إلى بيتِ الحكمةِ، واخترْ قَاعةً مناسبةً لترجمةِ كتبِ الطبِّ. ونَظِّمها كَما تَرَى، وألحِقْ بِها عددًا من النّسّاخينَ مَع المُترجمينَ. وأحبُّ أن نَرَى بَواكيرَ عَملِكَ، بعدَ شُهورٍ، فنحنُ بحاجةٍ إلى طبِّ اليُونانَ.

وسكتَ الرّشيدُ لحظةً، ثمَّ أضافَ قائلاً ليُوحَنّا:

– وأفرِغْ نَفسَكَ للترجمةِ، ودراسةِ الطِّبّ.

وانصرفَ جبرائيلُ مِن مجلسِ الرّشيدِ، مُصطَحِبًا معَهُ ماسويْه، وابنَه يُوحنّا. وحينَ كانُوا يجتازُون رُدْهةً طويلةً بقصرِ الخِلافةِ، قالَ ماسويْه لجبرائيل، بلهجةِ مَن يعترِفُ بالجميلِ:

– رَعاكَ اللّهُ ياجبرائيل. مثلما رَعيتَنِي وأُسرَتِي. ومتّعكَ بالصِّحّةِ والعافِيَةِ.

بِداية القِصَّة

كانَ يُوحنّا شابًّا شَقِيًّا، مَرِحًا، فيهِ دُعابَة. وكانَ المجلِسُ قَد انفضَّ مِن بيتِ أبيه، بانصرافِ الأصدقاءِ عائدينَ إلى بُيوتهِم، وكانَ اللّيلُ قَد إنتَصَفَ في بغدادَ، وسادَ السّلامُ في دارِ السّلامِ. وراقَ ليُوحَنّا أن يُداعِبَ أباه ماسوَيْه. قال:

– أبِي. أنتَ الآنَ في بغدادَ طبيبٌ شَهير، فكيفَ صِرت طَبيبًا، وأنتَ لَم تَقرَأْ فِي كِتابٍ مِن كتبِ اليُونانِ، ولا السّريانِ، ولا العَربِ، ولا الفُرْسِ.

فضَحِكَ ماسوَيْه، وقال لابنِه:

– كنتُ أوشِكُ على الرّقّادِ يا يُوحَنّا. لكنّكَ أثرتَ أمرًا، إن لَم تعرِفْه مِنّي، فَسوفَ تَعرفُه مِن غَيرِي.

فقالَ لَه يُوحنّا:

– أوثِرُ (أُفضل) يا أبِي أن أعرفَه منِك. حَتّى أكونَ على استعدادٍ للدفاعِ عَنك، وعَن نفسِي، إذا سَخِرَ مِنكَ أحدٌ.

فقالَ لَه ماسَويْه:

- لذلكَ قصّةٌ يا يُوحنّا، سأرويها لَكَ. وتَبدأ القِصّةُ بينَ الخليفةِ هارونَ الرّشيدِ، والطّبيبُ جبرائيل بَن بَختيشوع.

سأرحلُ غدًا

كانَ مَجلسُ الحُكمِ قَد انفضَّ مِن حولِ الخليفةِ العَبّاسِي هارونَ الرّشيدِ، واستبقَى الرّشيدُ مَعَه طَبيبَه «جبرائيل بن بخْتيشوع»، وقالَ لَه:

- ما أَعظمَ بيمارستانَ يا جبرائيلُ في زمَانِنا؟

فقالَ لَه جبرائيلُ:

- إنّه بيمارستانُ جُنْديسَابُور يا مولاي، في بلادِ فارسَ. وَهو البيمارستانُ الذي يَفِدُ الأَطباءُ مِن أنحاءِ الدُّنيا، ليزدادُوا فيهِ علمًا بالطِّبِّ، وإتقانًا لفنِّ العلاجِ، وإعدادِ الأدويةِ المفردةِ والمُركّبةِ، وَفيهِ تَعلّم أبِي «بخْتيشوع»، وصارَ رَئيسًا لَهُ، وَفيهِ تعلّمتُ أنَا، إلى أنْ دعوتنِي إليك مَعَ أبِي، ورفعْتنِي لِكَيْ أكونَ طَبيبًا لكَ بعدَ أبِي.

فَقالَ لَه الرَّشيدُ..

- فإنّي أُريدُ ياجبرائيلُ أنْ تُنشئَ لِبغدادَ بيمارستانَ مثْلَ بيمارستانَ جُنديسابور. فاذهَبْ إلى هناكَ، وخُذْ معَكَ مِن المهندسِينَ، من يرسُم لَك تصميمَ هذَا البيمارستانَ: مساحتُه، وطوابقُهُ، وقاعاتُه، وممرّاتُه. وأعِدَّ تلاميذَك في الطّبِّ، ليكونُوا أطباءَ بيمارستانَ بغدادَ.

فَقَالَ لَه جبرائِيل:

- سأرحلُ مِن غَدِي إلى جُندِيسابورَ يا مُولاي.

وَمن الرئيس؟

كانت جُنديسَابُور (شاه آباد الآن) مَدينةً لَها تاريخٌ بالعِراقِ العجميّ (إيران الآن)، وكان الامبراطورُ الفارسِيّ «سابُور» هو الذي أنشأها، وجعلَ اسمَها مُشتقًا مِن اسْمِه. وقد أُنشئَ بيمارستانُ هذهِ المدينةَ، فِي مَطلَعِ العَصرِ العبّاسِيّ، وذاعَ صَيتُه كأعظَمِ مُستشفَى فِي زَمانِه، وإليهِ انتسبَ كَثيرٌ مِن مَشاهيرِ الأطباءِ والصيادِلةِ، ومترجمِي كتبِ الطّبِّ فِي العصرِ العَبّاسِيّ، وبينَهُم كانَ بَنُو بختيشُوع.

وفي عهدِ الخَليفةِ المَنْصورِ صارَ «جُرجيس بنُ بختيشُوع» الطّبيبُ السّيريَانيّ النَّصرانِيّ رَئيسًا لبيمارسيتانَ جُنديسابُور، وتَحتَ يَدِه، دَرَسَ إبنُه «بختيشوع» الطّبَّ، وصارَ طَبيبًا بالبيمارستان ثمَّ رَئيسًا لَه، ومثلَه نَشَأَ ابنُهُ جبرائيل، إلى أنْ استَقْدَمهما إليه الخليفةُ هارونَ الرّشيدُ، ليكونا طَبيبيْنِ مَرمُوقَيْنِ بَينَ أطباءِ قَصْرِ الخلافة، فِي مَدينةِ بَغداد.

وفِي جُنديسَابور، التقَى جبرائيلُ برئيسِ البيمرستانِ «دَهَشْتَك» فأعانَهُ «دَهشتكَ عَلى نقلِ صُورةٍ طبقَ الأصلِ لبيمرستانِ جنديسَابور.

وعادَ جبرائيلُ مَعَ المهندسينَ إلى بغدادَ، وأشرفَ عَلى إنشاءِ بيمارستان بغدادَ، إلى أن انتهَى منه. وصارَ مَن يَراهُ يَحسَبُ نَفسَه قَد انتقَلَ إلى مَدينةِ جُنْديسابور. وعندئذٍ قالَ الرّشيدُ لجبرائيل:

- يا جبرائيلُ. لا ينقُصُ هَذا البيمارسيتان سوَى رَئيسٍ لَه، ولا أُريدُ أن تَكُونَ رَئيسًا لهذَا البيمارسيتان، حَتّى لا يَشْغَلك أمرٌ عَن العنايةِ بِنَا فِي قَصْرِ الخلافةِ.

فَقالَ لَه جبرائيلُ:

- ياموْلايَ. لا خِبرةَ لِي بفَنِّ إدارةِ البيمارستانِ. كَانت لجدّي هَذه الخبرة ثُمَّ لأَبي من بَعدِه. ولَكنِ سَوْفَ أذهَبُ مَرَّةً أُخرَى إلى جُنْديسابُور، وأُحَدّث رَئيس بيمارستانِها لِيكُونَ رَئيسًا لبيمارستانَ بغدادَ.

أَرْجُوك. أعْفني

وَعادَ جبرائيلُ إلى جُنْديسَابور. وتوجّه مِن فَورِه إلى بيتِ «دهشْتك» القريبِ من البيمارستان. وإثْرَ العَشَاء، حَدّث جبرائيلُ الطَّبيبَ الشَّهيرَ، ليكونَ رَئيسًا لبيمارستانَ عَاصِمَةِ الخِلافة. وراحَ يُغريهِ بِكلّ وسائلِ الإغراءاتِ. ليقبلَ أن يَرحلَ مَعَه إلى بغدادَ، ويتركَ البيمارستانَ إلى نائبه. وفُوجِئَ جبرائيلُ بدهشتَك يقولُ لَهُ:

- أَرجُوكَ. اعْفنِي مِن هَذا الأمرِ. فَقد طابتْ لِي الحَياةُ فِي جُنْديسابُور، وكَبِرتُ فِي السّنِّ، ونائبِي هُنَا فِي بيمارستانِ جنديسابور هو إبنُ أخِي، فاعْفِه مَعِي، فَأنا أعتمدُ عَليه، فِي إدارةِ بيمارستان جنديسابُور، ورعايةِ مَرضاه. ولا تجزعْ (لا تخف) ياجبرائيل، فَلسُوفَ أُهدِي إليكَ هديةً ذاتَ قَدرٍ،

يحسُنَ بِك قبولُها، وسَوفَ تَكونُ هديتِي كَثيرةَ النَّفعِ لبيمارسَتانَ بغدادَ.

فقالَ لَه جبرائيلُ:

- ومَن ستُهديه إليَّ، وتكونُ لَه خبرةٌ مِثلَ خِبرَتِك؟

هَديّة

قال دهشتك لجبرائِيل:

- في جنديسابور، نشَأَ فِي بيمارستانِ المدينةِ، صَبيٌّ سُريانِيٌّ، كانَ عمرُه آنذاكَ عشرَ سَنوات. وكَانت مهمتُه هيَ أن يدقَّ الأدويةَ للأطباءِ. ولَه الآنَ منَ العُمرِ خَمسينَ سَنَةً، ولَم يقرأْ حَرفًا واحِدًا بلُغة مِنَ اللّغات. ومعَ ذلِكَ عرفَ الأمراضَ مرضًا مرضًا، وعرفَ مايُعالَجُ بِه كُلَّ مرضٍ، مِن الأدويةِ المُفردةِ، والأدويةِ المركّبةِ.

فقالَ لَه جبرائيلُ بدهشَةٍ:

- عَجيب.

وأضافَ دَهشَتك قائلاً:

- وهو يَا جبرائيلُ أعلمُ خلقِ اللّه بانتقادِ الأدويةِ، واختيارِ جَيِّدِها، واستبعادِ رديئِها، وهو بعدُ خبيرٌ بإدارةِ البيمارستانَات. فأنَا وأخِي نَعتمدُ عَلَيه فِي إدارةِ بيمارستانِ جُنْديسابُور، حين نتغيبُ عنه مَدَدًا، قَد تَقصرُ، وقَد تَطولُ.

فَقالَ لَه جبرائيلُ حانقًا (غضبًا) وعاتبًا:

- وَيْحَكَ يا دهشَتك. أتريدُ منّي أن أُقدّمَ للرّشيدِ رَجلاً أُمِّيًا، وأقولُ لَه: هذَا رَجلٌ عالِمٌ بالطِّبّ، فاجعلْه رَئيسًا لبيمارستانِ، وهو أمِّي؟

فابتسمَ دهشْتك، وقالَ لجبرائيلُ:

- لاَ. لَم أطلبْ ذَلكَ منْك. مَشورَتي عَليك هِيَ: ضُمَّ رَجُلي هذا إلى أحَدِ تلاميذكَ مِن الأطباءِ القَديرينَ المَوثوقِ بهِم. ثُمَّ اجعلْ تلميذَك هذَا رَئيسًا للبيمارستانِ. واجعلْ رَجُلي مَعَه، مُعاونًا لَه.

وفكَّرَ جبرائيلُ فيما سَمِعَه مِن دهشتك. ثُمَّ قالَ لَه:

- ما اسمُ رجُلِك الأُمِّيُّ هذَا؟

فقالَ لَه دَهشتك:

- اسمُه ماسَوَيْه الجَوْزِيّ، وقَد نَشَأ فِي المَدينةِ يَتيمَ الأَبوَيْن.

فقالَ لَه جبرائِيلُ:

- سَنَرَى. فِي الصَّباحِ نَراهُ، ونَختَبِرُه، ونَسمَعُ مِنه.

نِهَايةُ القِصَّة

ضَحِكَ يُوحنّا مِمّا سَمِعَه مِن أَبيه، ثُمَّ قالَ:

- وماذَا حَدثَ مَعَك، حِينَ إلتقيتَ بالطَّبيبِ جبرائِيل؟

فقالَ لَه ماسَوَيْه:

- أُدخِلتُ عَليه بيمارستان جُنديسابور، ومَن حَولَه كانَ كُلُّ أطباءِ البيمارستانِ، وكنتُ في زَيِّ الرُّهبانِ. وقلتُ لَه: أنَا يا سَيِّدي هو ماسوَيْه الجَوْزِيّ. فَسلْني ما شِئتَ. ونَظَرَ إلى جبرائِيلُ فِي عَجَب. وأَجلَسَني بالقُربِ منه. ووَضَعني فِي اختِبارٍ أَمامَ الأَطِباءِ.

وتَنَهَّدَ ماسَوَيْه، ثُمَّ قالَ:

- ما كانَ أصعَبَ أسئِلتِه وأدقَّها. وما كانَ أسهلَ أجوبَتِي وأيْسَرَها. لَم أُخْطِئ فِي وَصفِ مَرضٍ، وأَعْراضِه، ولاَ فِي تَحديدِ الدَّواءِ لَهُ، ومِقدارِه، ومدةِ تَناوُلِه، وكَيْفيةِ إعدادِه، وتحديدِ جُرْعاتِه.

فقالَ لَه يُوحنّا:

- وسأَلَك عَن إدارةِ البيمارستانِ؟

فقالَ لَه ماسَوَيْه:

- أَجَلْ. وقَد رحتُ أصِفُ لَه ما يَجري العَمَلُ بِه في بيمارستانَ جنديسابور، إدارةً، وتعليمًا، ورعايةً للمَرضَى، وتَدبيرًا لِلمَالِ.

وراقتْ الدّعابة ليُوحنّا فقالَ لأبيه:

– وهَكذَا صِرتَ طبيبًا في بيمارسْتانِ بغداد، وأنتَ لا تقرأُ ولا تكتُبُ.

فقالَ له ماسَوَيْه:

– والرئيسُ غَيرُ المعلنِ يابنيَّ، لبيمارستانَ بغداد.

زفّة عُرس

في «بيتِ الحكِمة» نجحَ يُوحَنّا في ترجمةِ أهمِّ كُتبِ الطِّبِّ اليُونانيّةِ لأبقراط، وجالينوس، وديسْقوريس، وسواهم. وصارَتْ نُسخ كُتبهم مَيسورةً لِمَن يُريدُها مِن دارسِي الطِّبِّ والمُشْتَغلِينَ بِه.

وفي البيمارستانِ البَغداديّ اجتازَ يوحَنّا الاختِبارات الطِّبِّيّة، وصارَ طَبيبًا بِهذَا البيمارستان، بلْ صارَ أيضًا مِنَ الأطباءِ المُلْحقِينَ بقصرِ الخلافةِ للخَليفةِ، ولأُمراءِ الأُسرةِ وأميراتِها. وصارتْ ليُوحَنّا دارٌ كالقصرِ ببغدادَ، بِها بُستانٌ، ونافورةٌ، وحَظائِرُ لطيورٍ وحَيَوانات، ومَجلوبةٌ مِن غاباتِ آسيا وأفرِيقيا. وَكان أَبوهُ مَاسَوِيه قَد وَدّع الدُّنيا.

وأحبَّ يُوحَنّا بنُ ماسَوَيْه، وهو فِي الثّلاثينَ مِن عُمرِه، فَتاةً رَآها فِي سوقِ بغدادَ، وكانَ الخليفةُ هارونَ الرّشيد قَد لَقِيَ وَجهَ رَبِّه. وصارَ يُوحَنّا من بعدِه طَبيبًا لِلخَليفةِ الأمين، ثُمَّ لِلخليفةِ المَأمونِ. رآها يُوحَنّا، بَينَ النّاسِ، وهُمْ يَستَقبلونَ عَودةَ الخَليفةِ المأمونِ إلى بَغدادَ، وبهرَه جَمالُها، وأيقنَ فِي نَفسه أنَّها أحسنُ فَتاةٍ رَآها، وخَيرُ جَميلةٍ يمكنُ أن يَسمعَ بِها إنسَان. وسألَ يوحَنّا عَنها، وعَن أهلِها، فعرَفَ أنَّهَا ابنةٌ لورّاقٍ، يَنسخُ الكُتبَ فِي حانوتٍ بسوقِ الورّاقين، شَهيرٌ فِي بغدادَ، باسْمِ الطّيفُورِيّ.

ورَحّبَ الطَّيفُوريّ بخطبةِ يوحَنّا لابنَتِه. وتَزَوَّجَ ابنُ ماسويه، فِي ليلتِه مِن ابنةِ الطَّيفُوريّ، وصحبها مَعه، فِي زَفّةِ عُرسٍ صاخبةٍ، إلى بَيتِه، سَعيدًا بِها.

مجلسٌ فِي قَصر

وصارَ ابْن ماسويه كَبيرًا لتلاميذِ جبرائيلَ بن بختيشُوع مِن أطباءِ بغداد، وموضعَ ثقةِ الخَليفةِ العبّاسيّ، بقصرِ الخلافةِ، أيًا كانَ اسمُ هذَا الخليفةِ. يحضرُ مجالسَ طَعامه وشَرابِه، ويقدّم لَه الأشرِبةَ السّاخِنةَ المُقوّيةَ للهَضْمِ فِي الشّتاء، والأشربَةَ

البارِدةَ المقوّية للهضمِ في الصّيفِ، ويجدُ وقتًا، بعدَ البيمارستان وقصرِ الخلافةِ وبيتِ الحكمةِ، ليعقدَ مجلسَه الخاصَّ في بَيتِه الفَسيحِ ببَغدادَ. وكانَ مَجلسُه لَيلاً، فِي الصَّيفِ، وَسَطَ حَديقةٍ غنّاءَ بالأشجارِ، ونوافيرِ المياهِ، وفِي الشِّتاءِ، فِي دُرْهةٍ مَسقوفةٍ مزخرفةٍ بالنُّقوشِ والرُّسومِ، مِن عَملِ المُصوّرين في بغدادَ، والمصوّرين القادِمينَ مِن بِلادِ فارِسَ ومِصر، ومِن أرجاءِ العِراق.

وكانَ مَجلسُ يُوحَنّا عَجيبًا وفَريدًا، تَشيعُ فيه رُوحُ مَرَحِه ودُعابتُه، عَلى حدّةٍ في طَبْعِه، وسُرعةٍ فِي غَضبِه، وتَسودُه مَظاهِرُ التّرَفِ والغِنَى. وفي مجلسِه كانَ يَرَى علماءَ بَغدادَ وأَطباءَها، وأُدباءَها مِن الناثرين والشُّعراءِ، والخَطّاطينَ والمُصوّرين. وكانَ الحديثُ يُسمعُ بَينَ الحاضِرين آنًا بالفارِسيّة، وآنا بالسُّريانِيّة، وآنًا بالعَربيّة، على حين يروحُ الخادِمونَ والخادِماتُ ويَجيئُون بالحلْوى، وبالمَشرُوبات، ويقدمُونها إلى ضُيوفِ ابنِ ماسويه، إلى أن ينتَصِفَ اللّيلُ. وعندئذٍ ينصرفُ عَلَيه القومُ، ممتطينَ صَهَواتِ الخُيولِ والبِغالِ والحَمير، عائِدينَ إلى بُيوتِهم.

غُرفةُ المُجَوهرات

وكلَّ ليلةٍ، وَقَبلَ أن يَأوِيَ ابنُ ماسويهِ إلى مَرقَدِه، كانَ يَنفردُ بنفسِهِ في غرفةِ مالِه، وجَواهرِهِ النَّفيسةِ يفتحُ بابَ الغُرفةِ بمفتاحٍ لا يُفارِقُه أبدًا، ويغلقُها على نفسِه، وقد أضاءَ مصباحَها، ثمَّ يفتحُ خزانةً بالجدارِ، ويُخرِجُ ما بِها مِن عُلبٍ مَكسوةٍ بالقَطيفة، ويَأخذُ، كَشأنِه كلَّ ليلةٍ، في إحصاءِ ما لَديهِ مِن دَراهِمَ فضِّيةٍ، ودَنانيرَ ذَهبيّةٍ، واستعراضِ ما يَقتَنيهِ مِن أحجارٍ كَريمةٍ، ويتأمَّلُ ألوانَها، في ضَوءِ المِصباحِ، ويلعبُ ببريقِ إشعاعاتِها المُتموّجةِ عَلى الجِدارِ، ويَتأمَّلُ جَمالَ الزَّوَايا والإنكساراتِ في تلكَ الأحجارِ، ثمَّ يُعيدُ كلَّ شيءٍ إلى مكانِه، ويغلقُ خِزانةَ الجِدارِ، ثمَّ بابَ الغرفةِ، ويدسُّ المِفتاحَ في جيبِ صِدارِه، كَما كانَ.

كَانَ الأثرياءُ مِنَ الأُمراءِ والتُّجّارِ والأعيانِ، وكِبارِ العُلَماءِ والأطباءِ والأُدباءِ، مُولعُونَ فِي بغدادَ العباسيّينَ، مِثلَما كانَ أَسلافُهم في دِمَشْقَ الأمويّين، بِإقتناءِ الأحجارِ الكَريمةِ، والجَواهِرِ النَّفيسةِ، من ماسٍ وياقوتٍ وفيروزَ، ودرٍّ ومرجانَ ولازوَرْدَ، وسِواها، ويَتنافسُونَ في اكتِشافِ جيِّدِها من رَديئِها

وزائِفِها، بِعَلاماتٍ وخصائصَ، تَختَصُّ بكلِّ نَوعٍ مِنها، ويعرفُونَ الغَرَضَ مِن كُل حَجَرٍ وغايتِه.

وكانَتْ بلادُ العَرَبِ الفَسيحة، ومَا يتبَعُها مِن أقاليمَ العالمِ الإسلامِيّ، أراضِيَ غَنيةً بشتّى مَعادنِ الأحجارِ الكَريمةِ، وكانَتْ مياهُ سَواحلِ الخَليجِ شَهيرةً بماغاصَاتِ الدُّرِّ والمرجانِ، وكانَ تُجّارُ البلدانِ العَربيّةِ، يستَورِدُونَ أصنافَ الجَواهِرِ المختلفةِ من الشَّرقِ الأقصَى، والهندِ وسيلانَ (سرنديب). ولقد نَبَغَ فِي ظلِّ الحَضارةِ العَرَبيّةِ أكثَرَ من خَمسينَ خَبيرًا مِن خبراءِ الجَواهِرِ العَرَبِ، فِي العَصرِ الأمَويّ، ثمَّ فِي العَصرِ العبّاسِيّ، فِي دمشقَ، وبغدادَ، وعَواصِمِ دولِ الأطرافِ الإسلاميّةِ.

الحمدُ لله

ومعَ الأيّام، اكتَشَفَ ابنُ ماسويْه، أنَّ زَوجَتَه، ابنةَ الطَّيفُوريّ، الفائقةَ الجمالِ، والتي رَضيَتْ بمِثله زَوجًا، ورْهَاء (مسرفة وحمقاء)، بَلهاء، لا تعقلُ ما تقولُ، ولا تفهمُ ما يُقالُ لَها. لكنّ حبّها كانَ قَد تَمَكَّنَ من قَلبه، فحمدَ اللَّهَ عَلى ما أعطاهُ، ورَجا ألاَّ يكونَ نَسلُه منها مثلَها، بَل دَعا اللَّهَ أن يَرزُقَ نَسلَه مِنها عَقلاً كَعَقلِه هو، وَوجْهًا كَوجهِها هِيَ.

ورُزِقَ ابنُ ماسويه من زَوجَته هَذه بابنٍ، سَمّاهُ باسمِ جَدِّه: مَاسويه. وراحَ الابنُ يكبُر، وصارَ له وجهٌ غَير جَميلٍ مثل وجهِهِ هو، وعقلٌ مثل عقلِ أمّه. وحمِدَ ابن ماسويه اللَّهَ علَى مَا أَعطَاه.

ومَرِضَ ماسويه الحفيدُ ذاتَ يومٍ، وعكَفَ ابنُ ماسَوَيه كَطبيبٍ عَلى مُعالَجة وَلده، وتَمريضه، إلى أن جاءَ كِتابٌ مِن الأميرِ المُعتصمِ وَليِّ عَهدِ الخَليفة المأمون، يَطلبُ مِن أخيه أن يَبعثَ إليه بِطَبيبه ابن ماسَوَيه، لحاجتِه إليه في دِمشق. فَتَركَ ابنُ ماسَوَيه تَطبيبَ ابنه وتَمريضَه، لأصدقائه مِن الأطباءِ، ولَم تَمضِ سوَى ثلاثة أيامٍ علَى سَفَرِ ابن ماسَوَيه إلى دِمَشق، حتّى وَدَّعَ ماسَوَيه الحَفيدُ الدُّنيا. وفي العامِ نفسهِ لَقيَ الخَليفةُ المَأمون وجهَ اللّه، ووَلِيَ الخِلافةَ مِن بَعدِه أخُوه المعتصمُ باللّه.

ابنُ مَشغُوف

وبينَ أصدقاءِ ابنِ ماسويه في بغدادَ كان صديقُه محمدٌ حفيدُ الخليفة الهادي، وكانَ ذلكَ الحفيدُ مَعروفًا بكُنية: ابنِ مَشْغُوف، لِسعَةِ خيالِه، وتأليفِه لحكاياتٍ لا يتردَّدُ في حَشْوِها بالأكاذيب.

وحدَثَ أنَّ ابنَ مشغُوف مَرِض مَرضًا طالَ علَيه، فدعَا إليه صديقَه ابنَ ماسويه، لِيُعالجَه مِن مرضِه. وفحصَ ابنُ ماسويه صديقَه فحصًا دَقيقًا، وتراقصتْ في عَينيْه روحُ الدُّعابة، فقالَ لابنِ مَشغُوف بجدٍّ:

- لاَ علاجَ لكَ عندي. فأنا أرَى أنَّكَ تَكرَهُ العافِيةَ، وتحبُّ المرضَ، ولذلك لا أشيرُ عليكَ بدواء.

فقال لهُ ابنُ مشغوف بعصبيّة:

- يا جاهلُ. ومن يكرهُ العافيةَ، ويحبُّ المرضَ؟

فقالَ له ابنُ ماسويه:

- أنتَ. والبُرهانُ على ذلكَ عندِي. إنَّ العافيةَ تشبهُ الحقَّ والصدقَ، والمرضَ يشبهُ الكذبَ والباطلَ. أليسَ كذلكَ؟

فقالَ له ابنُ مشغوفٍ بعصَبيّة:

- نعمْ: ولكنْ، ما علاقةُ ذلكَ بي؟

فابتسمَ ابنُ ماسويْه، وقالَ:

- العلاقةُ وثيقة (قوية) يابن مشغوف. فأنتَ تتكلّمُ، أكثرَ عمرِك، بالكذبِ والباطلِ، فيكونَ كذبُك وسيلةً لمرضِك، لأنكَ من ترديدِك لكذبِك تُصدِّق نَفسَك، ولذلك تَضيقُ بغيرِك حينَ لا يصدِّقُ أكاذيبَك، وعندئذٍ تصيرُ عَصبيًّا، شديدَ العَصبيّةِ، فتَتوتَّرَ أمعاؤُكَ الغَليظَةُ.

وبُهِتَ ابنُ مشغوفٍ ممّا سمعَه من صديقِه. وهمسَ بضيق:

- اكتبْ لِي الدواءَ، وارحلْ عنّي.

فقالَ لَهُ ابنُ ماسويْه:

- لا دواءَ لكَ عندِي. ابرأْ فَقَط من علّةِ الكَذِب، والزمْ الصّدقَ فِي كلامِكَ ثلاثةَ أيّامٍ فَقَط. وسوفَ تُشفَى من مَرضِك.

وغادَر ابنُ ماسويْه دارَ ابنِ مشغوفٍ، وقَد تركَ وراءَه، مَعَ مَنْ يخدُمُه، قائمةً بدواءٍ من الأعشابِ، على أن لا يُعطَى لَه منقوعُها (عَصيرها) إلاّ بعْدَ ثلاثةِ أيامٍ.

الرّحيل عَن بغداد

إلى بغدادَ، جلبَ الخليفةُ المعتصمُ جندًا من التركِ التركستانيّين، وكوّن منهُم جيشًا خاصًا بحراسةِ الخلافةِ، وقصرِ الخلافةِ، وقمْعِ فتَنِ المتمردين ضدّه، من العلويّين، والفُرسِ، والعربِ المشايعينَ لهؤلاءِ أوْ هؤلاءِ.

وصارتْ لأولائكَ الجندِ مشاكلُ وخصوماتٌ مع أهلِ بغدادَ، والتجارِ والأعيانِ. وكانتْ بغدادُ قد اتّسعت، وبلغَ تَعْدادُ مَن يَسكنُونَها أكثرَ من مليونيْن من شتّى الأجناسِ، والأديانِ، فَقد صَارتْ بغدادُ عاصمةَ تجارةٍ وثقافةٍ، ولذلك فَكّرَ المعتصمُ فِي نقلِ مقرِّ الخلافةِ إلى عاصمةٍ أُخرَى. واختارَ مَكانًا لهذِه العاصمةِ الجديدةِ موضعَ مدينةِ «سامرّاء» الآن، على بعدِ ستّين ميلاً، شمالي بغدادَ، وكانَ مَوقعًا قَد اختارَه الخليفةُ العبّاسيُّ الأوّل لتكونَ به عاصمةَ الدولةِ العبّاسيّة، وعدَل الخليفةُ أبُو جَعفرَ المَنصورِ عَن هذَا المَوضعِ، وشيَّدَ مدينةَ بغدادَ، وجعلَها

عاصمةً للخلافةِ. وكانَ الخليفةُ هارونَ الرّشيد قَد بَنَى فِي هَذا الموضعِ قصرًا لَهُ، وحفَر بجوارِهِ قَناةَ «القاطول»

وَسارعَ المعتصمُ بتشييدِ المَدينةِ الجديدةِ، فأقامَ فِي الوسَطِ منها مسجِدًا جامعًا، لَهُ منارةٌ حلزونيّةٌ إرتفاعُها تسعةَ عشرَ مترًا.

وبنَى بها قصرًا لَهُ، وشيّد بِها أحياءً للجندِ التركستانيّين، وللمصريّين، وللمغاربةِ، وللتجارِ، ولأصحابِ المهنِ من الحرفيّينَ، وجعلَ بِها دواوينَ الخلافةِ، وأسواقَ التّجارةِ. وراحَ التجارُ والأعيانُ يُنشؤونَ بِها دورًا واسعةً، وقُصورًا فخمةً، ومثلهم شيدَ ابنُ ماسويْه قصرًا لَهُ، طرازُه المعماريّ مثلُ طرازِ العِمارة الأشوريّة، كسائرِ قُصورِ سامرّاء. وكانَ قصرًا قريبًا مِن دارِ الخلافةِ. وأطلقَ المعتصمُ عَلى هذهِ المَدينة اسمَ «سرورُ منْ رأى» واختصرَ الناسُ هذا الاسمَ فصارَ «سُرَّ مَن رأى».

وحينَ خُرِّبَت هذهِ المدينةِ، بعودةِ الخلافةِ إلى بغدادَ، صارَ اسمُها «ساءَ مَن رأى» وكانَ اسمُها فِي الزّمنِ الأشوريّ القديمِ: «ساميرا».

وكانَ عَلى ابنِ ماسَويْه، أن يكونَ قريبًا مِن دارِ الخلافةِ بسُرَّمَن رأى. وكانَ ينتهزُ الفرصةَ بين حِينٍ وآخرَ، ليزورَ قصرَه ببغدادَ،

وبهِ حديقةُ طيورِه وحيواناتِه، وكانت حَديقةٌ تُنافِسُ حديقةَ حيوانِ معاصِرِه الفَيلسوفِ الكِنْدي.

لِماذا تصيح الطَّواويس؟

فِي الجانبِ الشرقِيّ من بغدادَ، كانَ ابنُ ماسَويْه. وكانَ قصرُه مُلاصِقًا لدارِ صهرِه الطَّيفوريّ. وكانَ للطَّيفوريِ ابنٌ درسَ الطّبَّ عَلى يَديْه، ثمَّ آثرَ أن يكونَ متصوّفًا يعتزلُ الناسَ، ويتردَّدُ بينَ حينٍ وآخرَ على دارِ أبيهِ، ليزورَه، أو ليعودَه في مرضِه. وكانَ لابنِ ماسَويْه طاوُوسٌ اعتادَ أن يقِفَ عَلى الجدارِ الفاصلِ بينَ حديقةِ قصرِه، وحديقةِ دارِ الطَّيفوريّ.

وحدثَ أنّ ابنَ الطَّيفورِيّ باتَ ليلَةً بدارِ أبيه، وكانتْ ليلةً شديدةَ الحَرِّ، من ليالِي شهرِ مايو. وكلّما اشتدَّ الحرُّ، كانَ الطاوُوسُ يصيحُ فِي ظلامِ اللّيلِ. وكلّما حاولَ ابنُ الطَّيفوريّ النّوْمَ، استيقظَ على صياحِ الطاوُوس. وغضبَ ابنُ الطَّيفوريّ، فتسلَّلَ إلى الحديقةِ. وصوّبَ حجرًا إلى رأسِ الطاوُوس، فوقعَ الطاوُوسُ قتيلاً.

وفِي الصّباحِ، كانَ ابنُ ماسَويْه قد عادَ إلى قصرِه ببغداد، قادِمًا من سُرَّ مَن رَأَى، ورأى الطّاوُوسَ ميّتًا، فحزِنَ عليه، وراحَ يسُبُّ غاضِبًا مَن قتلَه. وخرجَ ابنُ الطَّيفوريّ إلى الحديقةِ، وقالَ لابنِ ماسَويْه:

– لا تشتُمْ مَن قتلَه. فأنا الذي قتلتُه. ولكَ عليَّ أن أشترِيَ لكَ بدلاً منهُ عدةَ طَواوِيسَ، بشرْطٍ واحد، ألاَّ يَصيحَ منْها طاوُوسٌ واحدٌ، في ظلامِ اللَّيلِ، والناسُ نِيّام.

عندئذٍ ضحِك ابنُ ماسَويْه، وقالَ لابنِ الطَّيفوريّ مداعِبًا:

– لا عليكَ مِن موتِه. فإنّما تصيحُ الطَّواويسُ عندما أكونُ مسافرًا بعيدًا عنها.

وانفجَرَ الجيرانُ فِي ضَحكٍ طَويلٍ.

قردة ملك النّوبة

وَسنةَ إحدى وعشرينَ ومائتيْن هجرية، خمسٍ وثلاثينَ وثمانمائة ميلادية، قدِمَ من صَعيدِ مصرَ مَلكُ النّوبة، زائرًا للخليفةِ المعتصمِ. وقدّمَ للمعتصمِ هدَايا كانتْ من بينِها قِردَةٌ. وفوجِئَ ابنُ ماسَويْه، وهو جالِسٌ مَع أصحابِه في حديقةِ قصرِه،

ثاني أيامِ عيدِ الفطرِ، بغلامٍ من الأتراك، من غلمانِ الخليفةِ المعتصمِ، يدخُلُ عَليه، مصطحبًا مَعه قردَة ملِكِ النّوبة، وقال الغلامُ لابنِ ماسَويْه:

– أميرُ المؤمنينَ يقولُ لك: زوِّج هذه القِردَةَ من قِردِك «حَماحِم».

فَوجِم يُوحنّا، ونظرَ بحيْرة إلى أصدقائه الأطباء: سلمويه، وبخْتيشوع بن جبرائيلَ، والجَريش، ثم قالَ للغُلامِ:

– عُدْ إلى أميرِ المؤمنين. وقلْ لَهُ: إن ابنَ ماسَويْه يُربّي قِرْدَه حَماحَمَ، ويغذّيه جيّدًا، لكي يغلُظَ ويسمُن، ثمَّ يقومُ بتشريحِه، ليضعَ فيه كتابًا، مثلَ كتابِ «جالينوس» في التشريحِ، يُهديهِ إلى أميرِ المُؤمنين. والحمدُ للّه أنَّ أمير المُؤمنين قَد بعثَ إليَّ بهذهِ القِرْدةِ أيضًا، لأشرِّحَ القِردَيْن، وأضعَ في تَشريحهمَا كتابًا لم يوضعْ في الإسلامِ مثلُه، يكونُ خيرَ هديةٍ لأميرِ المؤمنينَ المعتصمِ باللّه.

وإثْرَ إنصرافِ الغلامِ، أمرَ ابنُ ماسَويْه بضمِّ القِرْدة إلى حديقتِه، وَفي الأيامِ التالية، آثرَ ابنُ ماسَويْه أن يُشرّح قردةَ ملكِ النّوبةِ وحدَهَا لضخامَتِها، ووضعَ في تَشريحها كتابًا، أهداهُ إلى الخليفةِ المعتصمِ، فأشادَ به أصدقاؤُه وحاسدُوه، وخشيَ ابنُ

ماسَويْه أن يَفتضِحَ أمرُه عندَ الخليفةِ، فأطلقَ على قردِه «حماحم» اسمًا آخرَ.

مَن المَشئُوم؟

ودّع الخليفةُ المعتصمُ باللّه دنيا الناسِ. وتولّى الخلافةَ مِن بعدهِ الواثقُ باللّه. وصارَ ابنُ ماسَويْه مُكرّمًا عِندَه، ومقربًا إليه، مِثلَما كانَ حالُ ابنُ ماسَويْه مع أربعة خُلفاء قَبله: الرَّشيدُ، والأمينُ، والمأمونُ، والمعتصمِ باللّه.

وكانَ الواثقُ مغرمًا بصيدِ السّمكِ بشِصّ (سنّارة)، وهو جالسٌ عَلى شاطئ نَهرِ دجلةَ، مُحتميًا بظلّ دكانٍ شَيَّدهُ لهذَا الغَرضِ، من حرِّ الشّمسِ. وكانَ مَعَه: ابنُ ماسَويْه، والأميرُ المتوكّل، وبعضُ الأصدْقاءِ. وكان ابنُ مَاسَويْه جالسًا على يمينِ الخليفةِ الواثقِ.

ومرّت ساعاتُ النّهارِ ساعةً إثرَ (بعد) ساعةٍ، والواثقُ لا يصيدُ سمكةً واحدةً، وضاقتْ نفسُ الواثقِ، فالتفتَ إلى ابنِ ماسَويْه مُتشائمًا، وقالَ لَهُ:

– قُمْ يا مشؤومُ عَن يَمينِي.

ودهِشَ الواثقُ مِن قولِ ابنِ ماسَويْه لَهُ فِي الحالِ:

– لستُ مَشؤومًا يا أميرَ المؤمنينَ. فأنَا نَديمُ الخلفاءِ، وسَميرُهم وطَبيبُهم وعَشيرُهم. وإذا شاءَ أميرُ المؤمنينَ أَخبَرتُه بمنْ يكونُ هذَا المَشئُوم.

فقالَ لَهُ الواثِقُ:

– منْ؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَويْه:

– المشئومُ يا أميرَ المؤمنينَ هُوَ مَن ولَدَهُ أربعةُ خلفاءِ، ثُمَّ ساقَ اللّهُ إليه الخلافةَ، فتركَ الخلافةَ وقُصورَها، وقَعدَ فِي دُكّانٍ على شاطئِ دجلةَ، لا يأمنُ حرَّ الشَّمسِ، ولا عصفَ الرّيحِ بالرَّمْلِ، ثُمَّ تَشبَّه بأفقرَ قومٍ في الدُّنيا، وهُمْ صيّادُو السَّمكِ.

بُهِتَ الواثقُ مما قالَه ابنُ ماسَويْه لَهُ، وكظَم غيظَه، وتَأثَّرَبصدقِ ما سمعَه من ابنِ ماسَويْه. وقالَ لَهُ فَجأةً وكأنّه لم يسمعْ شَيَئًا يُغضبهُ:

– ألاَ تعجَّبُ مَعِي يا ابنَ ماسَويْه، من أنَّ الصّيادَ يطلبُ الصَّيْدَ مِقدارَ ساعةٍ، فيصيدُ منَ السَّمكِ ما يُساوِي دينارًا أو

أكثر. وأنا أقعدُ منَ الظَّهيرةِ إلى اللَّيْلِ، فلاَ أصيدُ سمكةً بدِرْهم واحدٍ؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَويْه:

– يا أميرَ المؤمنينَ. إنَّ اللّهَ جَعلَ رزقَ الصّيّادِ مِن صيْدِ السّمك، فرزْقُه يأتيه لأنّه قُوتُه وقُوتُ عيالِه. ورِزقُ أميرِ المُؤمنينَ بالخلافةِ، فهو غنِيٌّ عَن أن يُرزقَ بشيءٍ مِنَ السَّمَكِ. ولَو كانَ رزقُه مِنَ الصَّيدِ لوافاهُ السَّمكُ، مثلَما يوافِي الصّيّادَ.

عندئذٍ التفتَ الواثقُ لابنِ ماسَويْه بإعجابٍ، وقالَ لَهُ:

– صدقتَ فيما قلتَ، وأرحتَنِي. وأنقذتَ نفسكَ. من جُرأتك علَيَّ، وأنقذتَنِي من غَضَبِي. وأنتَ غدًا ضَيْفِي، فَكُنْ عندي بعدَ صلاةِ الظُّهرِ، فِي قصرِ الخلافةِ.

تَعويض ضيف

فِي مجلسِ الواثقِ، فِي اليومِ التّالِي، كانَ السّاقِي يصُبُّ للواثقِ بينَ حينٍ وآخرَ عصائرَ مُثلّجةٍ، ويصبُّ لابنِ ماسَويْه عصائرَ دونَها تَثليجًا. وكانَ السّاقِي حانِقًا على ابنِ ماسَويْه، لأنَّ يدَه

كانتْ شَحيحةً فِي العَطاءِ. ولمحَ الواثقُ تأفُّفًا وكراهيةً على وجهِ ابنِ ماسَوَيْه، مِمَّا يشربُه، فقالَ لَهُ:

- ماذَا بكَ يا صاحِبِي؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَوَيْه متضاحكًا:

- يا أميرَ المؤمنينَ. عرفتُ مذاقَ العَصائرِ كلِّها، واعتدتُها، باردةً، ودافئةً. ومذاقُ هذَا العصيرِ لا عهدَ لِي بِهِ.

وغضِبَ الواثقُ، وقالَ للسّاقِي:

- أتسْقِي طَبيبِي، وفِي مَجلِسِي، عَصيرًا تَعافُه النَّفسُ؟ اذهبْ عنّا، وأرسِلْ غيرَكَ لنَا.

وشاءَ الواثقُ أنْ يُرضِي ابنَ ماسَوَيْه، فأشارَ إلى سِمَّانة خادِمِه، وقالَ لَهُ:

- أرسلْ إلى بَيتِ طَبيبِنا الآنَ مائةَ ألفِ دِرْهم.

وجاءَ وقتُ العصرِ فسألَ الواثقُ سُمانَةَ قائِلاً:

- أأرسلتَ المالَ إلى بيتِ طَبيبِنا؟

فقالَ لَهُ سِمَّانةُ:

- لَمْ نرسلْهُ بعدُ يا مولاي.

فقال لَهُ الواثقُ آمِرًا:

- اجعلْها إذنْ مائتيْ ألفِ دِرهم، وأرسلْها الآن.

وجاءَ وقتُ العَشاءِ، فقالَ الواثقُ لسِمَّانة:

- أأرسلتَ المالَ إلى بيتِ الطَّبيبِ؟

فقالَ لَهُ سِمَانةُ:

- لمْ نرسلْها بعدُ ياموْلاَي. فنحنُ فِي انتظارِ خازنِ بيتِ المالِ.

فقالَ لهُ الواثقُ ناهرًا:

- اجعلْها إذن ثلاثمائَةَ ألفِ دِرْهم. وأرسلْها الآنَ.

ورأى سِمّانَةُ خازنَ بيتِ المالِ مُقبِلاً، فأسرَعَ نحوَه، وهمسَ لَهُ بفزَعٍ:

- أرسلْ مالَ الطَّبيبِ إليهِ الآن، وإلاّ لمْ يبقَ فِي بيتِ المالِ شيءٌ.

ووجدَ ابنُ ماسَوَيْه المالَ فِي انتِظارِه، عندمَا وصلَ إلى بيتِه، مَعَ منتصفِ اللَّيل.

عاشقان

بينَ بغدادَ، وسرَّ مَن رأى، وضَع ابنُ ماسَويْه الجَوْزيّ الحرّاني، وترجَمَ، مائتيْن وثلاثةً وأربعينَ كتابًا ورسالةً في الطّبِّ، بينَها كتُبٌ عَن: الجَنينُ، وزَغَلُ العيْن، والدُّوّارُ، والصوْتُ والبُحّةُ، والمالينخوليا، ومحنةُ الطَّبيبِ، وعِلاجُ المسمُوم، ومِحنةُ الكحّالين (أطباء العيون)، والطبيخُ، وماءُ الشَّعير، وعلاجُ الحَوامِلِ، وكتابُ: في غيرِ ما شيءٍ ممّا عجزَ عنْهُ الغيْر.

وكانَ الخليفةُ الواثقُ قد ودّع الدُّنْيا، وتركَ المتوكّلَ خليفةً من بعدِه، سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ بعدَ المائتينِ للهجْرة، سبعٍ وأربعينَ بعدَ الثّمانمائةِ للميلادِ. وصارَ ابنُ ماسَويْه بينَ أطباءِ الخليفةِ المتوكّلِ، مثلَما كانَ مِن قبلِه معَ خمسةِ خلفاءٍ.

وكانَ الخليفةُ المتوكّلُ مُحبًا لسماعِ النَّوادرِ، وعاشقًا لاقتناءِ الجواهرِ الكَريمةِ، وإهدائها لِسواه. وتقرّب ابنُ ماسَويْه في زيارةٍ للمتوكّل، بإهدائِه كتابًا عجيبَ العنوان، هو كتابُ: النّوادرِ،وفيه يحكي ابنُ ماسويْه طائفةً منَ النّوادرِ والفكاهاتِ، التي وقعتْ بينَه وبينَ مَرضاه مِنَ الفقراءِ والأغنياءِ، على السّواءِ.

وضُحَى اليومِ التّالي، قرأَ المتوكّلُ كتابَ النّوادرِ، واستغرقَ في الضَّحك منْها ولَها، طَوالَ النَّهارِ، إلى أنْ جاءَ اللَّيلُ، فاستقبَل زوّارَه، وبينَهم ابنُ ماسَويْه.

وراحَ المتوكّلُ يَروي بمرحٍ وفرحٍ للحاضرينَ، نَوادرَ مِن حِكاياتِ ابنِ ماسويْه معَ مَرضاه. ثُمَّ قالَ لابنِ ماسويْه:

- ليتَك تضعُ لنَا كتابًا تُهديه لنَا، وترسمُه باسمِنا، مثلَما فعلتَ معَ أسلافِنا.

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَويْه:

- يا أميرَ المؤمنينَ. أنَا عاشِقٌ صغيرٌ للأحجارِ الكَريمةِ، والجواهِرِ النَّفيسةِ، وأنتَ يا مولايَ سيدُ العاشقين لَهَا. وسَأُهديكَ قَريبًا ياموْلاَي كتابًا أَضعُه عَن الأحجارِ وصفاتِها، وسوفَ أقدِّمُه إليكَ في يومٍ مثلِ اليومِ الذي وليت فيه خلافةَ المسلمينَ.

للعلمِ وحدَه

في يومِ الذكرَى الأول، لتولّي المتوكّلِ الخلافةَ، قدّمَ ابنُ ماسَويْه كتابَه الجديد: «الأحجارُ وصفاتُها» للخليفةِ المتوكّل.

واستهلّه بمقدمَةٍ، ذكرَ فيهَا أنَّهُ سيتحدّث عَن سبعةٍ وعشرينَ حجرًا كريمًا، مِن بينِها: اللؤلؤُ، والياقوتُ، والزمُرُّدُ، والماسُ، والعقيقُ، والبلّورُ، واللازَوَرْد، والفيرُوز، والسَّبَس... وسواها، لكنّه لم يتحدّث في كتابِه إلاّ عَن ثمانيةَ عشرَ حجرًا منهَا، وتركَ الحديثَ عَن باقِيها، لأنّها تشبه عنده حَجَرَيْ: العَقيقُ، والجزَع.

وتصفَّحَ المتوكّلُ كتابَ ابنَ ماسويه الجديدَ، وقالَ لَهُ:

– لماذَا لا أرَى، وأنتَ طَبيبٌ، أيَّ حديثٍ فِي كتابكَ هذَا عَن فَائدةٍ أَو مَنفعةٍ طبّيةٍ، لأيِّ حجرٍ منَ الأحجارِ الكَريمةِ؟

فقال لَهُ ابنُ ماسَوَيْه:

– يا أميرَ المؤمنينَ. كتبُ الطِّبّ مَلأى بالحديثِ عَن مَنافعِ بعضِ الأحجارِ، وبعضُ هذهِ المنافعِ ظنٌّ من الظَّن، وحكاياتٌ شَعبيّةٌ تُروى، ويُصدّقُها بعضُ الأطباءِ. وقدْ آثرتُ في كتابِي أن أتحدثَ عَن الأحجارِ الكريمةِ، حديثَ عالمٍ خبيرٍ بعلمِ المعادنِ.

فقالَ لَهُ المتوكّلُ:

– كيف؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَويْه:

– فِي كتابِي تَحدّثتُ عَن أماكنِ وجودِ كلّ حجرٍ نفيسٍ، وصُوَرِ تواجُدِه فِي الطَّبيعةِ، وأصنافِه المختلفةِ، ودرجةِ صَلابَته، وكَيْفيّةِ صقلِه وجَلْيِه، ليُصبِحَ حجرًا لامِعًا يُطلقُ إشعاعاتِه. وتحدثتُ عَن عُيوبٍ قَد تُوجَدُ فِي هذهِ الأحجارِ، وكَيْفيّةِ مُعالَجَتِها، وعنِ الموادِّ والشّوائبِ التي قد تكونُ بها، وَتفسد لَونَها، وعَن المَوادِّ التي يُمكِنُ أن تُعيدَ إلى الحجرِ لونَه الطَّبيعِيّ والبَرّاقِ. وعَن مَدَى

صلابةِ كلِّ نوعٍ منَ الأحجارِ وقُدرتِه على أن يقطع ما سِواه مِنَ الأحجارِ، التي تَقِلّ عَنه صَلادةً وصَلابةً.

فقالَ لهُ المتوكّلُ:

- وعَلى أيِّ كتبٍ قبلَك اعتمدتَ فِي كتابةِ كتابِكَ هذا؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَويْه:

- ياأميرَ المؤمنينَ. اطّلعتُ على كتبٍ كتَبَها قبلِي علماءُ يونانيُّونَ، وعلماءُ سِريانيّون، ولمْ تتمَّ ترجمةُ كتبِهم بعدُ، ولم يكتُبْ عنها قبلِي منَ العربِ، سِوَى جابرِ ابنِ حيّان، وعَطاردِ الحاسبِ، وقد غرقَا فِي الكتابةِ عن المنافعِ الطِّبّيةِ للأحجارِ. وأضفتُ إلى ما قرأتُه خِبْرتِي بالأحجارِ، وخبرةَ المنقِّبينَ عنها، وخبرةَ الصاغَةِ، وخبرةَ الخُبَراءِ فِي زمانِنا، العارفِينَ بِمدَى نَفاسةِ الأحجارِ الكَريمةِ.

دُنيا الزّمرد

كانَ فِي المجلِسِ يومئذٍ صائغٌ ماهرٌ، قدمَ منَ الأهْوازِ، وباعَ للخليفةِ المُتوكّلِ عدداً من أنْفَسِ الأحجارِ الكريمةِ. وقالَ الصّائغُ الأهْوازيُّ للخليفةِ المتوكّلِ:

- إذا أذِنَ لِي مولايَ، سألتُ عالِمنا الطَّبيبَ أسئلةً بعينِها أرجُو أنْ أجِدَ جَوابَها عِندَهُ.

وَالتفتَ الصائغُ لابنِ ماسَويْه وقالَ:

- سأسألُكَ يا سيدِي عَن حجرٍ واحدٍ، لنعرفَ مدَى علمِكَ بِه: ما صِفةُ الزّمُردِّ؟ وما معدنُه؟

فابتسمَ ابنُ ماسَويْه، وقالَ بثقةِ العارفينَ، علمًا وخبرةً:

- الزُّمُرُّدُ جميعُه أخضرُ، وأحجارُهُ مختلفةُ درجاتِ الخُضرةِ، ويحصُلُ عليهِ المنقِّبُونَ فِي الجبلِ. وقد يصيبُون عِرقَ زُمُرُّدٍ، ويقطِّعُونه، فيحصُلُون منه عَلى أجودِ الأحجارِ. وقَد يَجِدُونه فِي التُّرابِ بالنَّخْلِ لَهُ، فَيحصُلون عليهِ بالغسلِ لَهُ، كَما يُغْسَلُ ترابُ الفِضّةِ. ومن أحجارِ الزُّمُرُّدِ أحجارٌ شديدةُ الخضرةِ قَليلةُ الماءِ (الرطوبة)، وبعضُ أحجارِه فيه كُدورَةُ (تَغير لون) وهوَ القليلُ الخضرةِ، الكثيرُ الماءِ.

فقالَ لَهُ الصّائغُ:

- فكيفَ يعالِجُ الصّائغُ الماهرُ هذَا العَيْبَ؟

فقالَ لَهُ ابنُ ماسَوَيْه:

- يُجلي على الخشبِ بالعقيق، وبالماسِ. وعندئذٍ يُصبِحُ الحَجرُ لامعًا مَصقولاً، يصلحُ لأغراضِ الزّينةِ.

فَقالَ لَهُ الصّائغُ:

- وأينَ يعثُر المُنقِّبونَ عليه فِي زمانِنا؟

فقالَ ابنُ ماسَوَيْه:

- في جبلٍ بصعيدِ مصرَ الأعلى. وهوَ جبلٌ كثيرُ الشُّعَب.

عندئذٍ ضَحِكَ المتوكّلُ، وقالَ للصّائغِ:

- حَسْبُك يا أهْوازِيّ. فصاحِبنَا خَبيرٌ بالجواهرِ النَّفيسةِ، وجامعٌ لأجْوَدِها، وبأقلِّ الاسعارِ، وإنّي لأفكِّرُ في الاستعانةِ بهِ لِمساوِمةِ الصّاغةِ، الذينَ يَنتهِزُونَ فُرصةَ كوني خليفة.

وضَجَّ المَجلسُ بالضّحِك فِي تلكَ اللّيْلةِ.

انهيّار.. وازدِهار

في القرنِ الثّالثِ الهجرِيّ، التّاسعِ الميلادِيّ، عاشَ ابنُ ماسَوَيْه معظمَ سِنِي حياتِه، وفِي هذَا القرنِ تضاءَلت جيوشُ المسلمينَ الجرّارةِ، وبدتِ الأمبراطوريةُ العَبّاسيّةُ أضخمَ مِن أن تُساسَ أَو تحكَمَ مِن مدينةِ بغداد. وراحَ المُغامرونَ يَفْصلونَ أطرافَ الدَّولةِ عن نواتِها (قلبها) ويُقيمونَ دولاً قَصيرةَ العُمرِ. فَلم يبقَ للعبّاسيينَ سِوَى العراقِ وفارسَ، والشّامِ وأفغانستانَ، وبرقةَ وجزيرةِ قُبرصَ. وعادَ قلبُ جزيرةِ العربِ وشرقُها إلى ما كانَا عَليه مِن عُزلةٍ في أيّامِ الجاهليّةِ.

وبرغمِ هذَا التّفكيكِ السياسِيّ ازدهَرَتِ الثّقافةُ العَربيّةُ ازدهارًا عجيبًا، وتَفوّقَتْ على كلِّ الثّقافاتِ المعاصرةِ لَهَا، وأسهمَ في ازدهارِها تَعدُّدُ عَواصمِ الثّقافةِ الإسلاميّةِ. فَفي هذَا القرنِ زادَ الإقبالُ عَلى التّرجمةِ مِنَ اللُّغاتِ اليُونانيّةِ والفارسيّةِ والسيريانيةِ، وعَلى أيدِي مُتَرجمينَ متعدّدي الأجناسِ والأديانِ، وفِي ظلِّ تَسامُحٍ دينِيّ مَلمُوس.

وفِي هذَا القرنِ أُلِّفَت كتبٌ عربيّةٌ مَشهورةٌ في العلومِ الإنسانيّةِ والتَّطبيقيّةِ، ووضَعَ الكِنْدِي الأساسَ الحضاريّ للتّوفيقِ بينَ

الفلسفةِ والعلمِ والدّينِ، ونشأتْ الحركةُ الصّوفيةُ، وأقامَ غُلاةُ الشّيعةِ جماعات اسماعيليّةٍ وقُرمطيةٍ، وازدَهَرَتْ الفُنونُ الإسلاميةُ في التَّصويرِ والعِمارةِ، وراجت أَسواقُ التِّجارةِ الدّاخليةِ والخارجيّةِ، في قاراتِ العالمِ الوَسيط.

* * *

وفي «سر من رأى» ودع «يوحنا» بن ماسويه الجوزى الحرانى الدنيا، عام مائتين وأربعة وأربعين للهجرة، ثمانمائة وسبعة وعشرين للميلاد. وصلى عليه صلاة الوداع خاصة الناس وعامتهم، في مدينة «سرى من رأى»، وفي مقدمتهم صديقه الخليفة العباسي المتوكل بالله.

* * *

وفي الشرق، في العصور الوسط، كتب عن ابن ماسويه: البغدادي في موسوعته: «هدية العارفين» والقفطي في موسوعته «تاريخ الحكماء»، وابن أبي أصيبعة في موسوعته «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وابن شاكر الكتبي في موسوعته «عيون التواريخ»، وابن النديم في موسوعته «الفهرسبت» وابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول».

وفي الشَّرقِ، في العَصرِ الحديث، كتَبَ عَن ابنِ ماسَوَيْه «الزّركلى في موسوعتِه «الأعلام» و«شيخُو» في كتابِه «المخطوطات العربية» وإبراهيم جُبُوش في موسوعتِه «فهرس المخطوطات المصوّرة»، وكُتِبَت عَنهُ المَقالاتُ في مَجلاّت: الحكمةُ، العُرْوَةُ، والكلمةُ، ومعْهدُ المخطوطاتِ. ونُشِرَ كتابُه «الجَواهِرُ وصِفاتُها» بِالقاهِرة، بتحقيقِ الدُّكتور «عماد عبد السَّلام رؤوف» عام ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعةٍ وسبعينَ الميلاديّ.

وفي الغربِ، ترجمَ «بروكلمان» لحياةِ العالمِ الطَّبيبِ ابنِ ماسَوَيْه فِي موسوعَتِه عنِ الأدَبِ العَربيّ.

وهُنَا وهُناكَ، أشادَ كلُّ الدّارسينَ والمُؤرّخينَ، بدورِ ابنِ ماسَوَيْه فِي التَّرجمةِ مَعَ سِواه منَ المُترجمينَ العِظام فِي العصرِ العَبّاسيّ، ودورِه فِي تأليفِ أوّلِ كتابٍ علميّ، عَربيّ، فِي علمِ المعادنِ، عنِ «الأحجارُ وصفاتها». فقدْ وضعَ بكتابه الأساسَ العلميّ الأوّل، لعلمِ الأحجارِ الكَريمةِ والجَواهِرِ النَّفيسةِ، وهوَ علمٌ ازدَهَرَ ازدِهارًا هائلاً فِي الحَضارةِ الغَربيّةِ الحَديثةِ، فِي القرنِ العِشرين.

يوحنا بن ماسويه

عالم عاش فى القرن العاشر الميلادى. نبغ فى الطب وألّف فيه أكثر من مائتى كتاب ورسالة. وصار الطبيب الخاص لستة خلفاء. وقاد حركةّ الترجمة لكتب الطب من اليونانية والسريانية إلى العربية. و اقتنى فى قصره طيورا وحيوانات من غابات آسيا وأفريقيا. وكان عاشقًا للمجوهرات النفيسة والأحجار الكريمة، وألف عنها أهم كتاب فى زمانه، مثلما كان محباً للدعابة والنوادر والفكاهات. إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- إبن النفيس
2- إبن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- إبن البيطار
6- إبن بطوطة
7- إبن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- إبن رشد
13- إبن ماجد
14- القزويني
15- إبن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- إبن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- إبن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- إبن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- إبن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-270-X
Dépôt légal: 1690-2006